

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين و صلى الله على سيدنا محمد و على اله و صحبه و سلم

المعهد العالي للعلوم الاسلامية القيروان بالتعاون مع جامعة الزيتونة

نادي الفكر الديني المقارن

الندوة العلمية الدولية

الانسان الكامل بين النص الديني و الفكر الانساني

28/27 ماي 2023

العنوان :

الإنسان الكامل بين تقرير الفقيه و آمال الصوفي

د مروان معزي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية الجزائر

ملخص المداخلة :

الإنسان الكامل بين تقرير الفقيه و آمال الصوفي

د / مروان معزي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة ،الجزائر.

marouanemaazi@gmail.com

تعتبر فكرة الإنسان الكامل مؤشر محوري يستقطب خصوصيات أفكار الصوفي تحت عباءة فكرة الحقيقة، في حين يتقيد الفقيه بظاهر النصوص مكتفيا بالمطلوب تحت عباءة الشريعة و مقتضيات عموم الممارسة المطلوبة.

و ما بين الشريعة و الحقيقة تتجلى استنطاقات الغرض و التوظيف، فالفقيه يتصدر مشهد العلاقة مع النص راسما حدود العلاقة بمبدأ الصلاح - الشرعي - الذي تمازجه الأوامر بالعقوبات و تبعات المخالفة دنيا و دينا ، تاركا الأحوال القلبية كعلائق خاصة بين العبد و ربه .

على أن الصوفي ساح في مراتب القرب كغاية متجاوز حدود البناء الفقهي إلى الاعتبار الوجداني كنماذج للممارسة القلبية التي تخطو بصاحبها نحو مقامات الفناء.

يقال إن الحلاج أخطأ بكلامه الذي يخالف الشريعة في حين أن البعض عذره بأن لسانه لم يستطع التعبير عن حياته القلبية ، على أن البعض الآخر يقول بأنه أبان حقيقة القوم و مفاهيمهم العقدية ، و هي كليات ما كان له أن ينطقها أو يعتقد بها بمنطق الفقيه.

و الإنسان الكامل بين الفقيه و الصوفي لا يمكن الحكم بتلاقيهما او انفصالهما على أننا يمكن أن نوضح مؤشرات القراءة و خلفيات الانطلاق و الأعمال و أخيرا مآلات الصوفي و احترازات الفقيه وهذه كلها تحت أنظار قوله

تعالى : { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ } فاطر 32

الإشكالية :

- كيف أصل كل من الفقيه و الصوفي لفكرة الإنسان الكامل ؟

تندرج تحتها عدة تساؤلات :

- ما هي أرضية الانطلاق (النصوص الدينية) و حدود القراءة و الفهم بين الفقيه و الصوفي - الإنسان الكامل أمودجا-

- هل يمكن تلاقي الفقيه مع الصوفي في إعطاء تصور لفكرة الإنسان الكامل ؟

- ما هي آثار تقرير أو نفي فكرة الإنسان الكامل على الصوفي و الفقه ؟

الغرض من المداخلة : محاولة عرض طبيعة التقريرات حول فكرة الإنسان الكامل بين الفقيه و الصوفي .

و شكرا

THE TRANSLATION:

The perfect human being between the jurist's determination and the Sufi's hopes.

The concept of the perfect human being is considered as a crucial indicator that attracts the specificities of the Sufi's ideology hidden under "The guise " of the idea of truth, while the jurist adheres to the apparent meaning of the texts, constraining himself with what is required under the "veil" of Sharia and the necessities of the general practice required. Therefore, between the Sharia and the truth, the questioning of purpose and implementation is evident. The jurisprudence takes the leadership of the scene of the relationship to the text, drawing the limits of the relationship with the principle of righteousness - the Shari'a - which orders match with punishments and the consequences of alliance in

this world and religion, leaving the conditions of the heart as special relations between the worshiper and his Lord. However, the Sufi sought in the ranks of closeness as an end that transcends the limits of the jurisprudential construction to the emotional consideration as models for the heartfelt practice that steps its owner towards the stations of annihilation. It is said that al-Hallaj made a mistake with his words that contradict the truth, while some excused him because his tongue could not express his heartfelt life, while others say that he explained the truth of the people and their doctrinal concepts, which are universals that he could not utter or believe in with the logic of the jurist. And the perfect person between the jurist and the Sufi cannot be judged by their convergence or separation, but we can clarify the indications of reading and the backgrounds of starting and the actions, and finally the fate of the Sufi and the precautions of the jurist, and all of these are under the gaze of the Almighty's saying: with good deeds.

Statement of the problematic:

How did both the jurist and the mystic reach the idea of the perfect man?

Several questions fall under it:

What is the starting point (religious texts) and the limits of reading and understanding between the jurist and the mystic – the complete human being as a model – Is it possible for the jurist to meet with the Sufi in giving a conception of the idea of the perfect man?

What are the effects of affirming or denying the idea of the perfect human being on the Sufi and jurisprudence?

The purpose of the intervention: an attempt to present the nature of the reports about the idea of the perfect man between the jurist and the mystic.

المدخلية : الإنسان الكامل بين تقرير الفقيه و آمال الصوفي.

ما بين المصطلح و المفهوم:

الإنسان الكامل عبارة عن مفهوم يعبر من خلاله الصوفي عن إرواء ذلك العطش المتمثل في آمال الاعتناق من قيود الإنسان الحيوان إلى الإنسان الكامل، و هذا المفهوم يتراوح بين المقامات إلى حيث مقام العبودية التام أين يستوي الباطن و الظاهر .

و فكرة الكمال فكرة يتوقف عندها الفقيه باعتبار فتح باب المقابلة مع الكمال الإلهي وبالتالي تجاوز التسمية المبدأ الشرعي، و لذلك نجد نزوع الفقيه إلى مجابهة كل فكرة تخرج عن الإطار الذي حدّه الشرع و لم يتناوله بالتفصيل، كما هي العادة في التنبيه على مسائل التشريع.

و إن لم ينكره الفقيه باعتبار الممارسة العملية و النظرية لكبار الفقهاء و المحدثين المتقدمين و إن لم تكن بنفس النبوة الصوفية ، إلا أن الفقيه ينطلق من الالتزام بحدود الشرع الظاهرية " عالم الأبدان و ارتباطه بوضوحية النص " دون إغفاله لعالم الأرواح و إن لم يكن بنفس النَّفْس الذي يعمد إليه الصوفي .

ينطلق الفقيه و الصوفي من نفس المشارب إلى نفس الغاية، لكن الآلية ، الفهم و التوظيف يختلفان .

ينطلقان من اعتبار القلب ملك للحوارج، ينطلقان من اعتبار الالتزام بظاهر الشريعة واجب مطلوب.

لكن ينطلق الفقيه بتقييدات النص الموجّه، راسماً دائرة تحت مسمى الحدود بانها منها على طريقة الآية الشريف:
{ و أما حدود الله فلا تقربوها } و قوله تعالى : { و اما حدود الله فلا تعتدوها } و ما بين الحدّين تتمركز الرؤية المعرفية التي تصدر الجانب النظري و توجّهه ، مكتفيةً بتقرير المراد من النص و مرات مراعيةً الأغراض و المقاصد.

تلتصق رؤية الفقيه في محاولة بناء نموذج إنساني مقيد بالمراد الإلهي، و هو الاستجابة للأحكام عن طوع و طيب خاطر و هو ما تقيده في الأحكام الشرعية المقررة و تطلق عليها اصطلاح " النية "، فالنية عند الفقيه أصل من أصول الحكم على العمل، و بالتالي النية شرط واجب أولي، ثم تردفها بشق ثاني و هو العمل، مع وضع قواعد

"الصلوحية" للعمل باعتباره عملاً صالحاً من غيره¹ ، وهو ما ينوط فعله شرط عدم المخالفة لما قرره النصوص وما درج به العمل ، وهو مصداقاً للآية القرآنية { فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً } الكهف ، و العمل الصالح على ما قرره الفقهاء هو ما اشتمل على النية الحسنة الصادقة (وهنا عمل قلبي) و موافقة ظاهر الشريعة (و هنا عمل ظاهر) ، و بالتالي نجد نزوع الفقيه إلى اعتبار الظاهر موكلاً السرائر إلى الله تعالى .

نسوق طريقة البغوي و القرطبي كنموذج مقابل للتفسير الصوفي مثلاً نجد البغوي يذكر: " .. علم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه أي أنني آدمي مثلكم خُصِّصت بالوحي ، (فمن كان يرجو لقاء ربه) أي يخاف المصير إليه (فليعمل عملاً صالحاً) أي لا يرئى بعمله"²

يذكر القرطبي المفسر من خلال الاحكام : " قلت (القرطبي) والكل مراد³ ، و الآية تعم ذلك كله و غيره من الأعمال ، و قد تقدم في سورة " هود " حديث ابي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أول الناس ، و قد تقدم في سورة النساء " الكلام على الرياء ، و ذكرنا من الأخبار كانك ما فيه كفاية ، و قال الماوردي و قال جميع أهل التأويل معنى قوله تعالى ولا يشرك بعبادة ربه أحداً إنه لا يرئى بعمله أحداً "

ثم نجد يسوق مقولة للحكيم الترمذي من خلال كتابه نوارد الأصول من خلال حديثه عن الرياء و الشهوة الخفية ، و علاقتهما بالإخلاص و الشرك.⁴

¹ و هو ما يظهر جلياً في تبني مسميات أصولية فقهية في تنظيم و ترتيب أحكام العبادات و المعاملات منها : الفرائض الواجبات ، شروط صحة شروط وجوب و هكذا .

² - البغوي سورة الكهف .

³ - يقصد ما سبق بيانه: { فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } قال ابن عباس: نزلت في جُنْدُب بن زهير العامريّ، قال: يا رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى، وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه إذا أطلع عليه سرّني فقال النبي صلى الله عليه وسلم " **إن الله طيبٌ ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه** " فنزلت الآية. وقال طاوس قال رجل: يا رسول الله! إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن أرى مكاني فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني أتصدق وأصل الرّحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرّني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } .

⁴ القرطبي، أحكام القرآن مكتبة صفا 2005، سورة الكهف م11 ص 55-57

و يمثل ما قاله في الرياء و الشهوة الخفية قاله ابن كثير و غيره ممن نصح المفسرين والفقهاء في تقرير مسائل القرآن.

و الملاحظة على القرطبي إيراد قول الحكيم الترمذي الذي يعد من أئمة الصوفية و ممن نصح القول بختم الولاية - و التي سيكون لها كبير الأثر من خلال بلورة فكرة الإنسان الكامل فيما بعد - و رأيي في المسألة أنه استأنس بأقوال الصوفية في هذا المقام لجلالة المسألة وتعلقها بعمل القلوب ، فاستأنس بأهل الحال بعد إيراد الآثار، و من جهة أخرى بيان متى يلجأ إلى أقوال أهل التصوف، رغم أن القرطبي صوفي من أهل السلوك الفقهاء في العموم لكن يغلب عليه النزوع إلى الأحكام الفقهية في التأليف .

و بالعودة إلى الآية نجد بن عجيبة كصوفي من المتأخرين في تفسير الآية السابقة بعدما نقل تفسير الفقهاء " أهل الظاهر و الشريعة " نجده ينتقل إلى نقل أقوال أهل الحقيقة كما هي عادته في التفسير : " الإشارة: إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا عمل الخصوص - وهو العمل الذي يقرب إلى الحضرة - كانت لهم جنة المعارف نُزلاً، خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً؛ لأنَّ من تمكن من المعرفة لا يُعزل عنها، بفضل الله وكرمه، كما قال القائل:

مُدَّ تَجَمَّعَتْ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقًا فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعٌ

ثم يترقون في معاريج التوحيد، وأسرار التفريد، أبداً سرمدًا، لا نهاية؛ لأن ترقيتهم بكلمة القدرة الأزلية، وهي كلمة التكوين، التي لا تنفذ؛ {قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي...} الآية.

هذا مع كون وصف البشرية لا يزول عنهم، فلا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. قل: إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليّ وحي إلهام، ويلقى في رُوعي أنما إلهكم إله واحد، لا ثاني له في ذاته ولا في أفعاله، فمن كان يرجو لقاء ربه في الدنيا لقاء الشهود والعيان، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان؛ فليعمل عملاً صالحًا، الذي لا حظ فيه للنفس؛ عاجلاً ولا آجلاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية،

والقيام بوظائف العبودية، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم¹.

نقارنه بما يقرره الشيخ الطاهر بن عاشور من خلال كتابه التحرير و التنوير : "....ولكنه بشر علمه كعلم البشر أوحى الله إليه بما شاء إبلاغه عباده من التوحيد والشريعة، ولا علم له إلا ما علمه ربه كما قال تعالى {قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي} الأعراف203. فالحصر في قوله {إنما أنا بشر مثلكم}... أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالمغيبات. وأدمج في هذا أهم ما يوحى إليه وما بعث لأجله وهو توحيد الله والسعي لما فيه السلامة عند لقاء الله تعالى. وهذا من ردّ العجز على الصدر من قوله في أول السورة {لينذر بأساً شديداً من لدنه} الكهف 2 إلى قوله {إن يقولون إلا كذباً} الكهف 5. والمعنى يوحى الله إليّ توحيد الإله وانحصار وصفه في صفة الوجدانية دون المشاركة. وتفريع {فمن كان يرجو لقاء ربه} هو من جملة الموحى به إليه، أي يوحى إليّ بوجدانية الإله وبإثبات البعث والأعمال الصالحة..... وأكد الإخبار بالوجدانية بالنتهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى، وحصل مع ذلك ردّ العجز على الصدر وهو أسلوب بديع"².

و بذلك بان و ظهر (كمنهج) طريقة المعالجة و التعامل مع النص آله و منهجا و مآلا.

على أن أهل الطريق يلتزمون بما سبق و يزيدون عليه جانباً آخر³ (لا نقول بأن الفقيه قد أهمله) وهو مراعاة الحال حال ممارسة العمل الصالح، محاولة الصوفي محاكاة ذلك الجو الإيماني المعبر عنه بالحال النبوي حال الذكر أو العبادة أو الممارسة الدينية اليومية المتعددة : صلاة، ذكر ، الحياة الزوجية، الحياة المالية

¹ - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة دار الكتب العلمية ، سورة الكهف م4 ص 203-204

² - التحرير و التنوير الطاهر بن عاشور سورة الكهف .

³ - و المراد هنا التزام المناهج التي يستخدمها لافقهاء من قواعد اللغة و فقه المقاصد و غيره لكنهم يضيفون عليه النزعة الروحية ، كما صنع ابن عجيبة من خلال تفسيره كنموذج ، ينطلق من التفسير العادي الى التفسير الاشاري ، و قد سبقه بذلك الامام الثعالبي من خلال تفسيره او من خلال كتاب الارشاد لما فيه مصالح العباد .، و المراد من هذا التنويه على اعتبار ان القوم لهم يد في التفسير ملعروف و مناهجه و ليسوا غرباء عن فنون التفسير .، لكن طبيعة التكوين و البغية و المنهج يختلفون مع الفقيه في الكثير من التصورات و المخارج .

و المحاكاة هنا بين الفقيه و الصوفي تجعلهما على قاب قوسين من الافتراق، فالأول يعمل على محاولة مطابقة الحال بالشرعية¹، و الآخر يجري وراء الحال الذي ليس له نموذج عملي باعتباره تجربة قلبية ذاتية و لا يمكن نقلها للغير لأنها تخضع لحالة حضور الفرد النفسية بل يعبر عنها ب: "الحالة المذاقية ان صح التعبير" و مدى القابلية لتلقى مثل هذا الحال و مدى قابلية القلب لاستيعاب المفاهيم الروحية التي تنتجها توجهات النص في أصلها.

و الأحوال عند الصوفي مرتبطة بالمقامات و التي هي حقيقة مستنبطة بما تثبته مقامات الملائكة: { و كل له مقام معلوم } (الصفات)

فالانتقال بين المقامات يتملك قلب الصوفي ابتغاء للوصول، يقول ابن عجيبة في هذا المجال: " مادة الآدمي أكمل من مادة الملائكة، فإذا اتصل العبد بشيخ كامل، واعتنى بتصفية روحه وسره، طوى نوره الوجود بأسره، ولا يزال يترقى في معارج أسرار التوحيد والتفريد، وتتوارد عليه الكشوفات، والعلوم، والأسرار، في هذه الدار الفانية، وفي تلك الدار الباقية، أبداً سرمداً، بخلاف الملائكة، فإن لكل واحد مقاماً معلوماً لا يتعداه، كما أخبر تعالى: وسر ذلك: أن الآدمي فيه بشرية و روحانية، فكلما جاهد نفسه، وغاب عن حس بشريته؛ ترقى في معارج التوحيد، والمجاهدة لا تنقطع عنه في هذه الدار؛ لأنها دار أكدار، فلا ينقطع عنه الترقى في المشاهدة، وأما في تلك الدار؛ فالترقي فيها من باب الكرم والإثابة على ما هنا.

قال في القوت: لعمري إن سائر الملائكة لا ينتقلون في المقامات كترقي المؤمنين، إنما لكل مقام معلوم، لا ينتقل إلى غيره، إلا أنهم يمدون من ذلك بمدد لا نهاية له إلى يوم القيامة، بأكثر ما يزداد جملة البشر.... قال: وبذلك فضّل المؤمنون الملائكة، وكذلك فضل الموقن أيضاً في مقامات اليقين من أعمال القلوب، على الأملاك بالتنقيل بأن جمعت فيه، ورفّع فيها مقامات، والملائكة لا يُنقلون، بل كل ملك موقوف في مقام معلوم، لا

¹ - وهو ما نراه في تأكيد الكثير من الفقهاء بملازمة حدود الادب مع الله و رسوله و المؤمنين ، فضبط الاتباع ابلاذب و المحب بالادب ، و هكذا ، و يحاول الفقيه ألا يجعل للحال سلطان على العقل بخروجه عن حدود الشرع و الادب ، خاصة في الاشعار و المديح و مخاطبة النبي صلى الله عليه و سلم ، تأميناً لايمان المسلم و ضبطاً لسلكه امام الحضرة النبوية، وهذا الصنيع موجود عند بعض اهل التصوف ممن يغلب عليه الحال ، وهو ما عابه الشيخ بن باديس على الشيخ بنعلوية رحمهم الله تعالى حينما وردته ابيات عن الشيخ بن علوية في حوار مع النبي ، و الحادثة مشهورة معلومة و كانت نهايته تصالح الشيخين.

ينقل منه إلى غيره، وإنما له المزيد من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله في قلب المؤمن، ونقل فيه مقامات. وكان له من كل مقام مشاهدات. هـ."

ثم يربط بينها و بين فكرة الانسان الكامل موظفا إشارة الشمس و القمر ، و البرزخ مبينا علاقته بفكرة الإنسان الكامل من خلال سورة الرحمن بعدما نوه بالقشيري ، يذكر: " فإذا أشرق نور الروح والقلب غابت ظلمة النفس والهوى، وإذا استولت ظلمة النفس والهوى على الروح والقلب غربت شمسهما، { فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان } مع ما في ذلك في اللطائف الغامضة، والغوامض الخفية، من عدم سكون الروح والقلب إلى التحلّي الجمالي، وعدم اضطراب النفس والهوى بالتحلّي القهري الجلاي لأنّ الكامل من هذه الطائفة هو الذي يُشاهد الجمال في الجلال، والجلال في الجمال، فلا يسكن إلى شيء، ولا يقف مع شيء. وقوله تعالى: { مَرَجَ البحرين يلتقيان } يُشير إلى بحر علم الشريعة، وبحر علم الحقيقة، يلتقيان في الإنسان الكامل، { بينهما برزخ } وهو العقل، فإنه يحجز الشريعة أن تعدو محلها، والحقيقة أن تُجاوز محلها، فالشريعة محلها الظاهر، والحقيقة محلها البواطن، والعقل برزخ بينهما، يقوم بحُكم كل واحدة منهما، فمن خفَّ عقله غلبت إحداها عليه، إمّا الشريعة، فيكون يابساً جامداً لا يخلو من فسوق، وإمّا الحقيقة، فيكون إما سكراناً أو زنديقاً.¹

يكتفي الفقيه بالحدود الشرعية تحت نطاق الممارسة الموافقة لظاهر الشرع ، بينما يفتح الصوفي الباب لسد العطش الروحي المسمى بـ " الحال " و على قدر خطو الخطو إلأ و تراه يتسابق لما بعدها على حد قولهم " من ذاق عرف " فلا تراه يلتزم حالاً إلا و انطلق لمسمى آخر و هو المقام فباقي مراتب الأحوال عند القوم.

إذن الاختلاف في منطلق القراءة يجعلنا نطرح التساؤل التالي: كيف قرأ كلٌّ من الفقيه و الصوفي الآية الكريمة: {

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ { فاطر 32.

¹ - ابن عجيبة سورة الصافات م 6 ص 194: الرحمن م 7 ص 272

إنّ الآية الشريفة تقسم الناس باعتبار الالتزام بأحكام الشريعة عند الفقيه ، أما الصوفي فيراها باعتبار مقام القرب و الرضى، و له فيها تفصيلات.

فمثلا :

ذكر ابن عجيبة : " التحقيق: أن الأقسام الثلاثة تجري في كل من العارفين، والسائرين، والعلماء، والعُباد، والزهاد، والصالحين إذ كل فن له بداية ووسط ونهاية. ذلك السبق إلى الله هو الفضل الكبير، جنات المعارف يدخلونها، يُحلّون فيها من أساور من ذهب، وهي الأحوال، ولؤلؤاً، وهي المقامات، ولباسهم فيها حرير، وهي خالص أعمال الشريعة ولُبها. وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إذ لا حزن مع العيان، ولا أغيار مع الأنوار، ولا أكدار مع الأسرار، ما تجده القلوب من الأحزان فَلِمَا مُنعت من العيان. ولابن الفارض رضي الله عنه في وصف الحمرة: و إن خطرت يوماً على خاطري امرئ أقامت بها الأفراح و ارتحل الهُمّ و قال أيضا : فما سكنت والهُمّ يوماً بموضع كذلك لم يسكن مع النعم الغم¹.

و بذلك ظهر لك التباين بين المنهجين ، وإن كنا لم نسق أقوال أكابر الصوفية بل عرجنا على من له صلة بالفقه و الشريعة كابن عجيبة كنموذج يحاول أن يكون وسطا بين الفقيه و الصوفي بإيراده في تفسيره ابتداء طريقة الفقهاء و المفسرين ، ثم يردفها بإشارات أهل الطريق، فما بالك لو عرضنا أقوال أكابره كابن عربي الذي يحتاج إلى معجم لفهم توجيهاته.

لقد تشكلت عبر الزمن تمركزات معرفية داخل النسقين (و التي مرّات نجدتها متداخلة باعتبار الممارسة المزدوجة عند بعض الفقهاء للفقه و التصوف) رسمت نماذج معرفية و مسارات علمية بيّنت مساقات المآخذ و المطالب ، و أثناءها تشكلت رؤى فاصلة في التعاطي فيما تم الانتماء إليه .

لقد تغيرت الرؤية المعرفية للتصوف تغيراً عنيقاً خاصة بعد ظهور ابن العربي القطب الصوفي الكبير الذي ترك جدلا واسعا حال حياته أو بعد وفاته ، لقد اتسمت تقاريره بالعناية بفكرة " الإنسان الكامل " ، و التي تعتبر نقلة

¹ابن عجيبة سورة فاطر م 6ص125.

نوعية في الفكر الصوفي ، بل تجعلها تعبر عن مرحلة ثانية تمثل المشهد الصوفي سرّعت من وتيرة الوعي و الفهم و الإدراك لمسالك التصوف ، و التي عبر عنها وفقاً لطريقة منظمة راسماً لحدودها مؤصلاً لها بانياً أحكامها من منطلقات نصية ، و قوالب فهمية ، و تجارب فردية .

لقد كانت فكرة الإنسان الكامل تسيطر على المشهد العرفاني لابن عربي وهي عبارة عن عناية تقرير حقيقة التدرج للوصول تاركاً وراءها مقامات كثيرة بكثرة التجارب.

على أن فكرة الكمال التي نادى بها الصوفية تواجه ضوابط الفقيه في تقديم مبادئ الشريعة و أصولها ، فالكمال المطلق لله تعالى لا ينافس فيه أحد فهو حقيقة الذات الإلهية متعلقة بها داخلية في عموم التنزيه عن النقائص تحت باب الصمدية ، و بالتالي الاتجاه في طريق كمال الإنسان يعد ضرباً من ضروب التأليه و التألّه في صفة من صفات ربه .

يواجه الصوفي الفقيه في هذا المبدأ على اعتبار أن الكمال المراد هو مبدأ خاص بالإنسان أي تحت نطاق الكمال الإنساني و ليس منازعة الرب في كماله الإلهي.

لقد انطلق الصوفي من باب فكرة الولاية و النبوة ، مستأنساً بالنماذج القرآنية مثل قصة " الخضر الرجل الصالح " الذي علّم نبياً من الأنبياء وهو " موسى بن عمران عليه السلام " ، و هذا الأخير تجدد الفقهاء في خلاف قديم في محاولة ضبط ماهيته بين الولاية و النبوة ، بما ينجر عنها من إفرافات " عقديّة تشريعية علمية " خاصة فيمن اتخذها نبياً فلا يعقل أن يعلم وليّ نبياً ، فيرد عليهم فقهاء آخرون بعدم وجود نص يضبط نبوته فلا نبوة إلا بنص .

و فكرة الرجل الصالح فتحت دلالة رمزية لعلم يوازي علم الفقيه المسمى بعلم الشريعة ، لقد فتحت ما يعرف بفكرة " العلم اللدني " ، منساقاً وراء " و علمناه من لدنا علماً " موظفاً " و اتقوا الله و يعلمكم الله " و تراوحت الفكرة بين مسالك التقوى إلى معابر الكشف أين تتجلى الرحمة الإلهية للمقربين، و تسقط معها الدلالة الترابية المتعلقة بالشق الإنساني .

هذه الفكرة يخالفها الفقيه باعتبار أن موافقة السنن الكونية صورة من صور الالتزام بأحكام الشريعة ، و الأخذ بالأسباب حتم لازم كما في قوله تعالى " { فاتبع سببا } ، و هذا لا ينافي التوكل، و هو ما يطرح سر التيب القصصي بين قصة موسى عليه السلام و قصة ذي القرنين في سورة الكهف.

ينزع القرطي كمثل للاتجاه الفقهي في التفسير إلى كون الرجل الصالح الذي هو الخضر نبيا فلا يعقل أن يعلم ولي نبيا ، و العلم اللدني هو علم الغيب و الباطن و علم موسى علم الأحكام ، و لم يطلق هذه النتيجة بل قيدها بما سبق باعتباره نبيا لأن الإنسان لا يتعلم و لا يتبع إلا من فوقه و ليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي¹ ، وهنا نلاحظ منهج سد الذرائع ظاهر جليا بسد الباب أمام فكرة التفسير الباطني و أمام تسلق فكرة خصوصية العلم الباطني، و قد تماشى و مقاصد الشريعة في حفظ الدين بما هو مطلوب.

ثم ساق تنبيها بمقولة الخضر : " إئتكَ يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي ، لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، و كيف تصبر على ما تره خطأ و لم تخبر بوجه الحكمة فيه و لا طريق الصواب ،

وهنا لفظة تربط بقوله تعالى : { أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده } فإعمالا للعلم اللدني قد تنتهك الحرمات ، و سدا لهذا المسألة رجع نبوة الخضر و قفل بإشكالية المقاصد من خلال قصة الخضر كصور من صور أدب التعلم المتعلم والعالم و كفى.

- لمحة حول منطلقات امتياز فكرة الإنسان الكامل عند ابن عربي:

ينطلق ابن عربي ومن سار في فلكه من مقدمات تعتبر مصاصات للصددمات ابتداء فهي مقدمات متسلسلة تقود صاحبها إلى التزام طريق التقدم صوب الاتجاه النهائي للفكرة ، و تعتبر مقدمة الامتياز الاتباعي للنبي محمد صلى الله عليه و سلم امتياز متمدد الأطراف ، فابتداء امتياز عموم الأمة بالأفضلية و الخيرية بختام الرسالة و بالإتباع ، و امتياز خاص بالعلماء و الأولياء ، هنا نجد تسلسل فكرة ابن عربي حول الارتقاء بهذا الامتياز إلى أعلى مراتبه ، و التي من بينها تلك المحصلة التي تصادف القارئ لعموم فكر ابن عربي و هي العلاقة بين الأولياء من أهل الإسلام و علاقتهم بمقام الأنبياء السابقين، و مبدأ الامتياز الانتمائي للنبي محمد صلى الله عليه و سلم .

¹ - القرطي أحكام القرآن، سورة الكهف. م. 11 ص 2

يذكر في رسالة اليقين : " قال صلى الله عليه و سلم في عيسى عليه السلام : " لو ازداد يقينا لمشى في الهواء"¹ فلم يكن عنده يقين يرفعه عن هذه الكرة كما رفع محمد صلى الله عليه و سلم ، فنحن ما مشينا في الهواء العظيم بيقيننا ، و لا أكبر من عيسى عليه السلام في اليقين ، بل كان ذلك بحكم تبعية إمامنا محمد صلى الله عليه و سلم ، فلما مشى في الهواء مشينا كما مشى اصحاب عيسى مع عيسى على الماء....فكذلك شرفنا الذي أعطانا الله و علمنا و قوتنا التي لم يعطها لنبي ليس ذلك لكوننا أشرف من الأنبياء ، و لكن لما كان نبينا أشرف من غيره ، و نحن أتباعه، دخلنا معه مقاماته بحكم التبعية ، و تأخر كل نبي عنه في مرتبته ، فتأخر عنا ضرورة ، فتخيل كل من لا معرفة له ، إنما مشى في الهواء لقوة يقينه ، و أنه أقوى فيه من عيسى و غيره ، و هيهات لما تخيل ، بل النبي نبي ، و أنت أنت ، المتبوع يزاحم المتبوع ، و التابع يزاحم التابع ، لا التابع يزاحم المتبوع ، إنما نحن من جهة التحقيق في مقابلة أمة ذلك النبي الذي تأخر عن نبينا ، و ذلك النبي في مقابلة نبينا ، فيقابل النبي بالنبي ، و الصاحب بالصاحب ، و الصديق بالصديق ، و لا تخلط بين الحقائق ، فتكون من الجاهلين . " ²

إذن نجد الاتجاه نحو ربط الأفضلية للأمة بأفضلية النبي ، لكن توسعها و شملها إلى الأفضلية العامة حتى شملت الأنبياء و إن صرح بأن الأفضلية بالتقابل نبي بنبي صاحب بصاحب ، هي فكرة يتوقف عليها الفقيه كثيرا محتزرا من تأصيلاتها و إفرازاتها سواء على خواص الأولياء أو عوام الناس، فمقام الأنبياء مقام محدد بأفضليته على باقي الناس بالعصمة في مقابل العامة ، و بالاختيار لتحمل الرسالة و النبوة ، و من التجاوز تجاوز مقامات الأنبياء، حتى و لو سلم بقاعدة أفضلية المتبوع تسوق معها أفضلية التابع . .

لقد فتح الحكيم الترمذي فكرة ختم الولاية كمقدمة لبيان مقامات الأولياء من أمة محمد صلى الله عليه و سلم ، و كان لها كبير الأثر في بناء فكرة الإنسان الكامل فيما بعد، فما فتى بالتعريف بالولاية إلا و نازعت الآمال فكرة ختمها ، و ما تعلقت فكرة ختم الولاية إلا بظهور بفكرة الإنسان الكامل كصورة من صور الختم في أرقى تجلياته.

¹ - حديث منكر على ما قاله العراقي في تخريج أحاديث الاحياء.

² - رسائل ابن عربي رسالة اليقين و المعرفة ، تحقيق سعيد عبد الفتاح ، دار الانتشار العربي دت ، ص 51-53

بالنسبة لي أن رد الفقيه كان ردا شرعي عقلي منطقي على نظرية الإنسان الكامل ، احترازا و صيانة للشيعة و بما يقتضيه العقل الشرعي ، فالفكرة في أصلها ذات دلالات رمزية لا تشمل خطاب العقل الجمعي ، و بالتالي تكمن **خطورة فكرة " الإنسان الكامل " عند الفقيه** في مطابقتها دون ثبت لقياس حدها الشرعي، و من هنا كانت عقلية الفقيه محاطة بنموذج المخاطب الموجه في أدنى مستوياته ، أما فكرة الإنسان الكامل فيراها الفقيه ضربا من ضروب العقل التأملي ذو البعد الرمزي وهو ما يواجّه به الفقيه من طرف الصوفي على اعتبار أن الفقيه لم يدرك مراد الصوفي في طرحه ، وهنا يكمن الخلل في التعليل الصوفي في نظر الفقيه ، و تعاد بقوة إلى الأذهان حضور أو قل بل تستدعى فكرة العلم اللدني و يعاد حضور " الخضر " إلى المشهد ابتداء و بقوة ، كما تسترسل فكرة التقوى و العلم { و اتقوا الله و يعلمكم الله } ، كضابط يُرَدُّ به الصوفي على الفقيه الذي لم يعلوا إلى فكرة الصوفي انتهاءً.

و يؤيد الأمر وضوحا حال شرحه للمنح و العطايا من خلال كتابه المعرفة : " اعلم أن المنح و العطايا الذاتية لا تكون إلا عن تجلي ، و التجلي عن الذات لا يكون أبدا إلا بصورة استعداد المتجلى له غير ذلك لا يكون فلا تطمع و لا تتعب نفسك في أن ترقى أعلى من هذا الدرج ... فمننا من جهل في علمه فقال " و العجز عن درك الإدراك إدراك" و منا من علم فلم يقل مثل هذا، بل أعطاه العلم السكوت ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلى عالم ابالله تعالى و ليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل صلى الله عليه و سلم ، و خاتم الأولياء ، فما يراه أحد من الأنبياء و الرسل إلا في مشكاة الرسول الخاتم صلى الله عليه و سلم ، و لا يراه أحد من الأولياء إلا في مشكاة خاتم الأولياء."¹

و هنا يتوقف الفقيه مليا على هذا التمثيل و التمثل.

- تداولية الخطاب و المخاطب و مادة الخطاب :

تحضر الدلالة اللغوية أمام أنظار الفقيه و تتماشى معه أثرا بأثرٍ تقيّدا بما عرفه العرب بمنطوق القرآن ، و بالتالي خطوط القراءة و آليات الفهم تنطلق بوضوحية النص ، و ممارسة صاحب الرسالة صلى الله عليه و سلم.

على خلاف الصوفي الذي تعلق فكره بما وراء المفردة إلى تجلياته في عالم النظر و الروح.

¹-رسائل ابن عربي : كتاب اليقين المعرفة، كتاب المعرفة ص 190.

و بالتالي الخطاب واحد لكن طريقة الولوج إليه و مسالك النظر وحدوده تتفاوت بل تتوازي، فتدخل فيه أهلية المتحدث أولاً ثم القارئ بعلمه و تجاربه الخاصة، و إذا لم تضبط يصبح النص من خلال القراءة و المفهوم متأرجح غير ثابت ، و هنا يفقد فاعليته بالنسبة للفقهاء، فيما يصبح مفتوح أمام الصوفي.

فتجليات مقامات اللغة بين الفقيه و الصوفي ترهن دلالة النص و القارئ المستقبل له، و بذلك يحق لنا طرح التساؤل التالي: " لمن يكتب الفقيه و الصوفي ؟". إذا تعلق خطابه بمستويات المخاطب و قابليته للفهم المراد رمزا و دلالة تصريحا و تورية " .

إنّ الجانب الدلالي و الرمزي يظهر من خلال تمظهرات متعددة أهمها لغة التخاطب و التعلق المصطلحي، فالاصطلاح مرتبط بمدى تفعيل الدلالة المقصودة في ذهن المتكلم و محاولة نقلها إلى ذهن المخاطب، ابتداء من تنوع و تعدد التسمية و الاصطلاح.

على أن خطاب الفقيه عند الفقيه أبسط و أشمل بتعلقه بواقعية النص و سلاسة النقل للآخر ، و غالبية الأحكام بتعلقها بالتشريع ، على عكس الصوفي الذي يحتاج فيه المخاطب إلى نفسية محددة لاستقبال معانيه و إدراكها و إنزالها منازلها، بل إلى اتحاد منازل الاستقطاب بين المرسل و المرسل إليه، و هذا ظاهر جلي من خلال كتابات ابن عربي التي تحتاج إلى تفصيل و جهد جهيد لفهما، وهو ما أقرّه الباحثون في الشؤون الصوفية و في ابن عربي خاصة .

- الإنسان الكامل و المسميات و الدلالة :

يعبر ابن عربي عن فكرة الإنسان الكامل بعدة مسميات وهذا في حد ذاته استشكال للقارئ عموما (و عند الفقيه خصوصا) و يتساءل هل تعدد المسميات من باب أهمية المسمى أم من باب الاختلاف في المراتب.

لا يصل ابن عربي إلى فكرة الإنسان الكامل إلّا بعد إيراده للعديد من المسميات ذات دلالة على رتب و مقدمات نجد بزوغ فكرة المهدوية ، نيابة النبوة ، فكرة النبوات ، الإنسان ، الإنسان الوارث.... و غيرها كثير جدا تسجل حضورها بقوة من خلال تنوع التوظيف و التقرير.

كمثلا نختار فكرة الإرث و الوارث، نجد ابن عربي يذكر : " **ورث الوراثة** : صفة من صفات الله عز وجل و هو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق و يبقى بعد فنائهم ... " و بعد الاستدلال بالنصوص القرآنية و النبوية يتجه نحو

إعطائه مدلول لفهم : " باعتبارها من الأسماء المشتركة فكما تطلق على الله تعالى و على الإنسان يقول : أنا وارث ،
و الحق وارث ما عندي من الحب و الشوق المبرح و الود.

وفي مقام آخر " وارث القدم المحمدي " : الوارث القدم المحمدي الذي يأتي على رأس كل قرن ، يعلم الناس
امور دينهم لقوله عليه الصلاة و السلام : " يأتي على رأس كل قرن رذل من أمتي ألخ الحديث فهو آدم زمانه¹ .

ثم نجد " الوارث المكمل = الوارث المحمدي " : يقول : " ... فسلمت على هارون عليه السلام ، فرد و سهل
و رحب و قال : مرحبا بالوارث المكمل ، قلت أنت خليفة الخليفة ، مع كونك رسولا نبيا ..."²

فتراه يتدرج في مسميات³ و في مقامات يتخذها حقائق لا ريب فيها ، بخلاف الفقيه الذي إن قبلها فمن باب الجاز
لا من باب عين الحقيقة، و هنا نجد الخلاف في الاعتبار.

هذا دون أن نخرج إلى سياقات الإثبات بين الحقيقة و الشريعة ، ففي حين ينطلق الصوفي (ممثلا في ابن عربي) من
التجارب و الرؤى كحقائق لا جدل فيها ، نجد نزوع الفقيه إلى رفض هذا المسلك ابتداء، و هنا نكون أمام نتيجة
فيصلية مهمة جدا بل كان الأجدر بالباحث الانطلاق منها لتقرير المسائل ، وما أرجأناها إلا للضرورة البحثية
للوصول بها إلى نتيجة ختامية لمحاولة قراءة كل من الفقيه و الصوفي في الكثير من المجالات " وهنا النموذج
الانسان الكامل " إنها فكرة " المنطلق المعرفي أو نظرية المعرفة " .

- نظرية المعرفة بين الفقيه و الصوفي و أثرها في تقرير فكرة " الإنسان الكامل " :

¹ - المعجم الصوفي سعاد الحكيم، دار دندرة للطباعة و النشر 1981 ، ص 1200

² - المعجم الصوفي ص 1201.

³ يرجى النظر المعجم الصوفي : فكرة المهدي :ص 1102 ، نيابة النبوة ص 1080 ، النبوات ص 1049 ، فكرة الوارث ص 1200 ،الانسان

إنَّها فكرة " نظرية المعرفة " و حدود الأعمال، و هي مربط الفرس بينهما ،فالاختلاف بين النموذجين جعل مباحثهما المعرفية في تقابل دائم حتى و لو تصالحا حيناً في بعض المسائل فهي من باب العروج إلى الاستئناف الجانبي دون أن يكون لها دور فعال .

ففيما بنزع ابن عربي إلى تقرير مثلاً مبدأ الرؤية و الكشف كصورة مصدرية ، نجد الفقيه لا يلتفت إليها مطلقاً و إن لم ينكرها في حدودها الشرعية .

و الرؤى و الكشف و الإلهامات كصورة نموذجية فقط باعتبار وجود مسارات و مسالك أخرى تحت مظلة نظرية المعرفة عند الصوفي، ترهن إلتقاء الفقيه و الصوفي ، رغم أن هناك فقهاء كثر تبنا فكرة التصوف لكن في حدود الفقه ، فهم متصوفة فقهاء ، و هؤلاء أكابر تبنا منهج التربية و السلوك في الإطار الفقهي والحدود الشرعية على ما تقتضيه " نظرية المعرفة " و حدود النص .

على أن نموذج الصوفي في مساراته المعرفية الأقرب إلى الأطروحات الفلسفية، و التخريجات التجريبية ، تجعله في إطار مواز لمجمل التجارب السابقة للصوفي الفقيه ، وهنا نجد مثلاً: الإمام الغزالي و النووي مثلاً كنموذج حي ينزع إليهم الفقهاء في المقاربات الصوفية في مقابل ابن عربي و من سار في فلكه، لئسورية الفهم و الممارسة و وضوحية اللغة و ظاهرة التعاطي مع النصوص .

و كتاب الفتوحات و فصوص الحكم كنموذج لنظرية المعرفة الصوفية عند ابن عربي ، و كصورة مؤسسة لفكرة الإنسان الكامل من خلال الطرح و التداول و المآل، تعتبر صورة ناطقة بما تم تقريره فقيه جمع ابن عربي أصوله المعرفية و لغته التداولية كاشفا عن مبتغاه العقدي و طريقه نحو فكرة الانسان الكامل الذي يعبر فيه عن نفسه .

خاتمة

من خلال ما سبق ذكره تبين لنا حقيقة فكرة الإنسان الكامل بين تقرير الفقيه و آمال الصوفي ، و أن كل من الفقيه و الصوفي لهم مجالات محددة لها لغتها التداولية و منطلقاتها المعرفية و مرجعيتها النصية ، و في الأخير آمالهما الغائية .

إن فكرة الإنسان الكامل عند الفقيه فكرة مقيدة بالكمال الإنساني مع تجنب تداولية المصطلح بتداولية الاصطلاح القرآني كالسبق و المقرب و الولي مع التشدد في حضور المقصد القرآني و تقييداته من خلال الصورة النبوية , على حين الصوفي ينطلق من التداولية القرآنية ابتداء بتوظيفات فهمية وصولاً إلى تقرير مصطلحات تفرضها حقيقة التجربة و حالها ، بما يفضي إنتاج مسافات لا تصب إلا في فكرة " الكمال الإنساني".

على أن الحقيقة الرابطة بين الفقيه و الصوفي في بناء " الإنسان الكمال " هو بنائية الطريق إلى الله تعالى .

و تبقى فكرة الوصول متعلقة بمنطلقاته و وسائلها و غاياتها ، و الحكم هو النص، و الصورة المحمدية هي الفيصل .

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن فكرة الإنسان الكامل تركت جدلاً واسعاً بارتباطها بصاحبها (ابن عربي)، و نبقى على ما أقره السابقون : "ما كان ديناً عند المتقدمين يبقى ديناً عند المتأخرين".

و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم ، و الله من وراء القصد .